"أن تقتل طائرًا بريئًا": تمييز عنصري ... أم غياب للعدالة؟

ظهر الجانب القانوني في مقدمة الرواية حيث بدأت هاربر لي روايتها بمقولة "المحامون، أظنهم كانوا أطفالاً يومًا ما" لتشارلز لام، حيث تتجلى شخصية أتيكوس فينش وهو محامي يبذل قصارى جهده لتعليم أبنائه عادات وتقاليد أهل البلدة التي يعيشون فيها، ويقوم بإسداء النصح لهم بما يساعدهم على تجاوز العقبات وحل المشكلات التي تواجههم.

فنجد في أحداث الرواية العديد من نصائح أتيكوس لأبنائه ويظهر ذلك عندما حذر جيم وسكاوت بعد أن أهداهما بندقيتين بمناسبة عيد الميلاد قائلاً: "أفضل أن تقوم بالتصويب تجاه العلب الصفيح في الفناء الخلفي، ولكني أعلم أنك ستطارد الطيور؛ بإمكانك اصطياد ما تريده من أنواع البلوجاي، هذا إن استطاعت إصابتها، ولكن تذكر أنها خطيئة أن تقتل طائرًا محاكيًا" لأن "الطيور المحاكية لا تفعل شيئًا سوى أنها تعزف لنا الموسيقى كي نستمتع بها .. إنها لا تلتهم ما نزرع ولا تعشش في حقول الذرة وهي لا تفعل شيئًا سوى أنها تغني من قلوبها لأجلنا، لذا فإنها خطيئة أن تقتل طائرًا محاكيًا" كما قالت ذلك الآنسة مودى لسكاوت لتوضح لها موقف أتيكوس وهدفه من ذلك.

كما نعيش مع الطفلة سكاوت مراحل نموها ونضجها مروراً بمرحلة الطفولة بما تحمله بين طياتها من براءة الأطفال ثم تأتي مرحلة الأخذ في النمو بما فيه من اكتساب الخبرات والاستفادة من تجارب الآخرين. فمنذ وفاة والدتها كانت كالبورنيا والآنسة مودي والعمة ألكسندرا بمثابة أم لها، ويتضح ذلك عندما أرادت كالبورنيا تعليم سكاوت احترام ضيوفها فقالت لها "هذا الفتى ضيفك ولو رغب في أكل مفرش السفرة لوجب عليك تقديمه له".

ونرى أن أتيكوس يحاول تعليم أبنائه قيمة أخلاقية من خلال كل موقف يتعرض له أبناؤه فكان يجبر جيم على الذهاب إلى السيدة ديبوز لكي يقرأ لها يوميًا على سبيل العقاب، وبعد وفاتها قال له أتيكوس "أردتك أن ترى فيها شيئًا خاصًا ... أردتك أن تعرف معنى الشجاعة الحقيقية، بدلاً من أن تفكر في الشجاعة على أنها رجل يحمل بندقية. الشجاعة تكون حين تعلم أنك خاسر حتى قبل أن تبدأ، ولكنك تبدأ على أية حال، وتحاول أن تصل بقضيتك الخاسرة إلى آخرها مهما كان الأمر. قد لا تكسب إلا نادرًا، ولكنك ستكسب على أية حال ".

ويعد أتيكوس بمثابة الأب الحكيم في توجيه أبنائه إلى التفكير السليم فقال لسكاوت "ليس بإمكانك أن تفهمي شخصًا ما حتى تنظري للأمور بمنظوره" ثم استرسل قائلاً: "حتى تلبسي جلده وتتعايشي تمامًا معه ".

إن الرواية تقدم نموذجًا لأسلوب حياة الريف الأمريكي في تلك الفترة التاريخية بما تحتوى عليه من عادات وتقاليد، كما أنها تحترم إنجازات الحضارة المصرية القديمة ويظهر ذلك من خلال مقولة جيم لسكاوت عن المصريين "إنهم أنجزوا أكثر مما أنجز الأمريكيون فهم اخترعوا ورق التواليت ومستلزمات التحنيط. كيف كان سيصبح حالنا الآن لولا إنجازاتهم؟" وهذا دليل على تقدم الحضارة المصرية القديمة في العلوم خاصة علم التحنيط بالرغم من بدائيتهم. وإلى وقتنا هذا لم يستطِع العلم التوصل إلى سر التحنيط الذي برع فيه المصريون القدماء بالرغم من تطور الوسائل التكنولوجية الحديثة الآن.

تحتوى الرواية على مبادئ وقيم وأفكار تجعلنا نلتمس بشدة المشكلات العنصرية الواقعة نتيجة ممارسة الظلم ضد الأمريكيين الأفارقة في جنوب الولايات المتحدة ومحاولة مواجهة المواقف العنصرية التي سادت مجتمعاتهم.

فالرواية توضح مبدأ الحياة " انتصار الخير على الشر"، رغم أنه ربما لا يحدث ذلك في الواقع، لكن من الضروري غرس هذا المبدأ في أخلاق الأطفال، فهو نتيجة حتمية وسر ديمومة الحياة.

فقام أتيكوس بقبول قضية الدفاع عن زنجي وهو توم روبنسون إزاء تهمة اعتدائه على امرأة بيضاء، وعندما سألته سكاوت عن سبب دفاعه عن توم روبنسون قال لها "السبب الرئيسي هو أنني إن لم أتولَّ الدفاع عنه فلن أمشي في هذه البلدة مرفوع الرأس، ولن أكون قادرًا على تمثيل بلدتي في برلمان الولاية، كما أنني لن أستطيع أن أكون أبًا حازمًا لك و لجيم"، ثم أردف قائلاً: "الأمر يتعلق بطبيعة عمل المحامى؛ فالمحامى يصادف في حياته قضية واحدة –على الأقل– تترك أثرها في حياته الخاصة" وبالرغم من أن أتيكوس كان على علم بأنه لم يكسب تلك القضية، إلا أنه بذل أقصى ما في وسعه لمحاولة الانتصار قائلا: " لا تعني هزيمتنا وقد مضى عليها مائة عام أن نتخلى عن السعي للانتصار"، وذلك لتنفيذ ما يمليه عليه ضميره حيث قال: "قضية توم روبنسون مسألة تتعلق بجوهر ضمير الإنسان يا سكاوت، ما كنت سأستطيع أن أذهب إلى الكنيسة وأن ألتزم بالصلاة لله إذا لم أحاول مساعدة ذلك الشخص".

فظهرت ملامح شخصية أتيكوس في السعي للانتصار والتمسك بأهداب الحق، فهو ضد التمييز العنصري وأبرز دليل على ذلك أنه فضل كالبورنيا –مدبرة المترل ذات البشرة السوداء– لكي تهتم بأبنائه وتقوم برعايتهم وتعمل على تلبية احتياجاتهم، فهي تستطيع التصرف في شتى المواقف الصعبة التي يمر بها الأطفال. فعندما ذهبت بهم ذات مرة إلى الكنيسة الخاصة بالزنوج اعترضتها سيدة تدعى "لولا" قائلة: "لا يجب عليك إحضار الأولاد البيض إلى هنا .. إن لهم كنيستهم ولنا كنيستنا" ورد كالبورنيا الذي يتسم بصحة الإيمان قائلة: "ولكنه نفس الإله أليس كذلك؟"

فكل هذه المواقف أثرت في تكوين شخصية سكاوت وساعدت على تعاملها مع المواقف المختلفة بحسن تصرف شديد وهي مازالت طفلة بريئة، فعلى سبيل المثال أخرجت سكاوت أتيكوس من أصعب المواقف التي مرت عليه أثناء حراسته لتوم روبنسون في السجن قبل محاكمته حين قامت بمحاولة بائسة لتجعل الغوغاء ينصرفون دون النيل من توم روبنسون وذلك من خلال حديثها مع السيد كاننجهام لمحاولة إشعاره بالألفة فجعلته يخجل من نفسه وينصرف ومعه الغوغاء حينما قالت له "إن الأملاك الموقوفة شيء سيء ".

وتحدى أتيكوس جميع المصاعب التي واجهته وحاول تجاوز العقبات التي اعترضت طريقه في الدفاع عن توم روبنسون من خلال قوة مرافعته التي جعلت هيئة المحلفين يستغرقون وقتًا طويلاً في التوصل لحكم على توم روبنسون وهو أمر لم يعتاد عليه أهل القرية، محاولاً بذلك إثبات عدم صحة أقوال المجني عليها "مايبلا" قائلاً: "إنها لم ترتكب جريمة، بل كان ما فعلته مجرد كسر لمجموعة أعراف صارمة من أعراف مجتمعنا، أعراف متزمتة إلى حد أن أي شخص يكسرها سيُنبذ من قِبَلِنا كأنما لا يليق به أن يعيش بيننا"، واستطرد حديثه قائلاً: "كانت تعرف تمامًا بشاعة فعلتها، ولكنها صممت على كسر تلك الأعراف لأن رغباتها كانت أقوى منها" ومن خلال ذلك يتضح لنا أن المجتمع الأمريكي لا يدين امرأة بيضاء بسبب قيامها بكسر أعراف صارمة في المجتمع.

وتم الحكم في النهاية على توم روبنسون من قبل هيئة المحلفين بأنه مذنب استنادًا على الافتراض الآثم الذي قدمه أتيكوس مسبقًا أثناء مرافعته والذي مؤداه "أن كل الزنوج يكذبون، وأن كل الزنوج أشخاص لا أخلاق لهم من الأساس، وأن

كل الذكور الزنوج لا يمكن الوثوق بهم فيما يخص نساءنا، وهو افتراض يستدعي إلى الذهن ما تتسم به قدراتهم العقلية".

فأحيانًا يقع الظلم بسبب مجاملة المجتمع ومجاملة المعايير والقيم التي يتبناها ذلك المجتمع نتيجة غياب العدالة في إطار النظام العنصري وهذا ما حدث بالفعل أيضًا في حيثيات قضية الدكتورة مروة الشربيني.

لقد حرموا الأمريكيين الأفارقة من حقوق المواطنة و لم يكفِ ذلك بل وقع الأمريكيون الأفارقة ضحايا للعنف العنصري فقاموا بإنشاء كنائس خاصة بهم بأقل التكاليف للحفاظ على كرامتهم من الامتهان من قبل البيض والتحرر من سلطتهم واستعبادهم للزنوج، وتطرق أتيكوس إلى ذلك قائلاً: "في محاكمنا حين تكون هناك شهادة رجل أبيض ضد شهادة رجل أسود فالأبيض هو الرابح دائما. إنها حقيقة بشعة جدًا، ولكنها من حقائق الحياة".

وبذلك ظل الزنوج يواجهون تحديات سياسية واقتصادية واجتماعية، فهم يعانون من ظلم البيض وعدم وجود قوانين للمساواة بين البيض والسود في جميع فرص الحياة وكذلك في حصولهم على أبسط حقوق الإنسان كالحق في التعليم والحياة والمساواة بينهم في الحصول على وظيفة، و تتفاقم أخطر المشكلات العنصرية السائدة في عدم حصول الزنوج على محاكمة عادلة، وهذا أمر ليس بجديد .. وأشار أتيكوس إلى هذا الجانب قائلاً: "لقد فعلوا ذلك من قبل وفعلوه الليلة وسيفعلونه من جديد وحين يفعلونه .. يبدو أن الأطفال وحدهم الذين يبكون" ويقصد أن هذا ما يفعله هيئة المحلفين، فيرى أتيكوس أنه "يجب تغيير القانون، تغييره بحيث يكون للقضاة فقط حق تحديد العقوبة بالنسبة للقضايا التي تتعلق بالإعدام".

وصورت الرواية بدقة بشاعة موت توم روبنسون نتيجة محاولته للهرب وشعوره بالظلم واليأس من حصوله على حريته وبراءته من الأكاذيب التي نسبت إليه حيث قال أتيكوس "وجدوا في جسده سبعة عشر ثقبًا و لم تكن هناك حاجة إلى إطلاق كل تلك الطلقات عليه".

ولكن لابد أن يتحقق مبدأ "انتصار الخير على الشر" كما أوضحنا في البداية، فلم يكتفِ بوب يوويل –والد ماييلا– بموت توم روبنسون بل وصلت به الوحشية إلى الانتقام من أتيكوس في أبنائه وقيامه بمحاولة لقتل أطفال أبرياء لم يقترفوا أي ذنب وإنما كان كل ذنبهم في تلك الحياة أنهم أبناء أتيكوس ذلك المحامي الشجاع الرافض للتمييز العنصري، فكانوا بذلك ضحايا الجهل والفقر المدقع. وجاءت تلك المقولة على لسان السيد تيت – مأمور مقاطعة مايكوم – موجهًا حديثه

لأتيكوس بأنه: "هناك شاب أسود مات دون مبرر والرجل المسئول عن موته ميت هو الآخر الآن. فليدفن الموتى أنفسهم هذه المرة يا سيد فينش".

وبذلك تمضي أحداث الرواية، وتعرض هاربر لي في ختام الرواية موجزًا لما دار بها من أحداث،كما نجدها بدأت الرواية بكسر ذراع جيم واختتمت الرواية بها بالإضافة إلى بدء روايتها أيضا بتحذير أتيكوس لجيم وسكاوت من خطيئة قتل الطائر المغرد وكذلك اختتام الرواية بها. وهنا تظهر براعة المؤلفة وإبداعها في سرد أحداث الرواية المتعددة دون أن يتسلل للقارئ الشعور بالملل، وتوجيه آرائه إلى قضية التمييز العنصري.

لذلك أتساءل: أليس من حق الزنوج الحياة والعيش بأدنى حقوق الإنسان كالحق في الحياة بدون ممارسة أشكال العبودية عليهم وعدم مواجهتهم لمشكلة شراء حريتهم ؟!!

تعليق من مكتبة الإسكندرية:

نود الإشارة إلى أن الأحداث والمواقف التي تحتوي عليها رواية «أن تقتل طائرًا بريئًا» تصور المجتمع الأمريكي في ثلاثينيات القرن الماضي، أي منذ حوالي ٨٠ عامًا، وقد حدثت تغيرات جذرية في المجتمع الأمريكي منذ ذلك الوقت (وخاصةً في فترة الستينيات)، لذلك فإنه من الخطأ اعتبار أحداث الرواية ممثلةً للمجتمع الأمريكي اليوم، فكان يجب الإشارة إلى هذا الفارق الزمني في المقال.